مع ميخـــائيل نعيمة

فى «همس الجفون»

للأستاذ مناور عويس

— ٢ —

وفى المقطعين الثالث والرابع نرى نعيمة يستسلم لحكم القضاء الذى يسخر كل ما فى الوجود لكل ما فى الوجود ، كما نراه يعود إلى نغمته المستحبة — وحدة الوجود — وما أقرب فلسفة نعيمة من فلسفة (اسبنوزا) — ووحدة الوجود هذه التى يتغنى بها نعيمه هى وليدة اليأس وابنة الحيرة والشك ، لقد حاول نعيمه أن يؤمن بما لقنوه صغيراً من عقائد وأديان فأبى عليه عقله النفاذ وقلبه الكبير الحساس الواعى أن يؤمن بما لا يرضاه عقله وقلبه الكبيران ، فعكف من ثم على الأديان القديمة والحديثة يقربها ويخلها ويقتلها درساً وتمحيصاً فاستخلص منها خير ما فيها وخلف قشورها وزؤانها للعميان الذين يؤمنون بالحرف ولا يدركون الروح ، أولئك الذين « يكرهون النبتة ويرذلون التربة ! »

أخذ نعيمه من الأديان أثمارها وأزهارها وأوراقها وترك فروعها الجافة الزائدة للغربان تنعق فوقها ! ... ثم خلع على معتقده هذا فنه وروحه فأبدع لنا ديناً وفناً جديدين لا عيب فيهما إلا أنهما إنسانيان شاملان ليس فيهما ارهاق للأرواح ولا استمار للنفوس والعقول ! . .

دين نعيمة وفنه لا يعرفان للانسانية حدوداً ولا للوطنية سدوداً وقيوداً .

ولقد رحب بأدب نعيمه وعقيدته قوم وأنكرهما آخرون ؛ أما الذين أنكروهما فسوف يرجعون عن ضلالهم عندما تزول عن عقولهم رقى السحر وطلاسم الشعوذة ؛ سوف يفزعون إلى تلك الواحة الوارفة الظلال حيث يستريح المتعبون وتقيلو الأحمال ! .

لابد لكل عبقرى من أن يؤدى تلك الضريبة الباهظة الأزلية — ضريبة العبقرية — لأهل وطنه وزمانه ، ولابد له أيضاً من أن يلبس أكاليل الشوك قبل أن يزدان مفرقه بأكاليل الغار ! فلو لم يكن نعيمه شرقياً لسميت الشوارع باسمه وأقيمت له التماثيل أو على الأقل لوضعت كتبه بين أيدى طلبة الكليات والجامعات . ولكن نعيمه الروحانى الإنسان شرقى يعيش فى مهبط الأنبياء ومصدر الوحى — وكم رجم الشرق من أنبياء وكم قتل من مرسلين ! — عفواً أيها القارىء لقد نسيت (أوراق الخريف) مرة ثانية فهاهى كاملة فاقرأ وتأمل وتحسس ثم احكم ؟

تنـــاثرى تنـــاثرى يا بهجـــة النظر
يا مرقص الشمس ويا أرجوحة القمر !
يا أرغن الليـــل ويا قيثارة السحر
يا رمز فكر حائر ورسم روح ثائر
يا ذكر مجـــد غابر قد عافك الشجر !
تناثرى تناثرى !
تمـــانق ، وعانق أشـــباح ما مضى
وزودى أنظـــارك من طلعة القضـــا
هيهات أن هيهات أن يعود ما انقضى !
وبعد أن تفارق أتراب عهد ســـابق
سيرى بقلب خافق فى موكب القضـــا
تأنق ، وعانق ! ..

فى الغالب فى الحياة العادية الصحية ، النظيفة . وإننا إن حكمنا أفكارنا ورتبناها ، يصير نومنا هادئاً مريحاً . وليس هناك أى خوف إن حلمت . فإن كنت متمتعاً بالصحة فلا بد أنك ستحلم الأحلام التى ستحرسك من أى انفعال مزعج ، سواء كان من العالم الذى حولك وأنت نائم أو من العالم الأكبر المخزون فى ذاتك الداخلية . إذن ستنام ، وستجد الصحة فى « المجدد الهادىء للطبيعة الخلوة — النوم » .

والشخص العاقل يستعمل النوم للنفع أيضاً . فالأفكار التى تلازم العقل الواعى قبل النوم مباشرة ، بانتظام أو حتى باطراد ، تتسلل وتأخذ طريقها إلى اللاشعور . فإن كانت الأفكار عن سعادة أو نجاح أو صحة ، فإنها حتماً تعجل نشاط اللاشعور وتتحقق تلك الرغبات .

ما أكثر ممكنات النوم . وما أقل استعمالنا لها !

عبد العزيز عادو

سيرى ولا تعاتبي لا ينفع العتاب
ولا تلومي الضن والريا ح والسحاب
فهي إذا خاطبتها لا تحسن الجواب
والدهر ذو العجائب وباعث النوائب
وخالق الرغائب لا يفهم الخطاب
سيرى ولا تعاتبي !

عودي إلى حضن الثرى وجددي العهود
وانسي جمالا قد ذوى ما كان لن يعود !
كم أزهرت من قبلك وكم ذوت ورود !
فلا تخافي ما جرى ولا تلومي القدر !
من قد أضاع جوهراً يلقاه في اللحود !
عودي إلى حضن الثرى ! . . .

ليست (أوراق الخريف) هذه سوى رمز للانسان ، ألعوبة الأقدار ، وسخرية الليل والنهار ، الإنسان الذي لا يملك لتلك الأقدار دفعاً ولا لبطش الزمان به كفاً . إن (أوراق الخريف) من عيون شعر نعيمه لا بل يمكن وضعها إلى جانب روائع شعراء العرب الذين نظموا في هذا الموضوع ، ومن شك في ذلك فليقرأها مترجمة ، فالترجمة هي محك الآثار الأدبية ، وبها تميز الشعر الرفيع من الشعر الزائف الذي أملته المناسبات التافهة والأغراض الرخيصة . . انظر إلى قوله :

سيرى ولا تعاتبي لا ينفع العتاب !

أو قوله :

كم أزهرت من قبلك وكم ذوت ورود !

فأية مرارة تفيض من هذا الشعر ؟ وأية بساطة ، وأي إحساس وأية موسيقا ؟ ! إنني أترك للقارىء الحكم والمقارنة بين هذا الشعر البسيط وبين شعر النحت والبلاغة اللفظية . وشتان بين بلاغة الروح وبلاغة اللفظ ، وشتان بين شاعر يعرف ماريد أن يقول وبين شاعر لا يهمه إلا أن تطول قصيدته التي يكثر فيها النظم ويندر الشعر . . إنني لعلى يقين من أن صاحب (همس الجفون) لم ينظم قصيدة من قصائده إلا بعد أن حبل بها فآلمه وتمخض عنها وجدانه . . . اصغ إليه في قصيدته (التائه) كيف يصور لنا أشواق روحه وأوجاعها وتعطشها إلى الإيمان كما يرسم لنا حيرته في تلك النار المقدسة التي تشب بين ضلوعه فيطلب أن تختار لها موقداً غير قلبه ، ونحن نحمد الله على أن اختار لتلك النار قلباً شاعراً واعياً كقلب نعيمه ، قلباً (يحول قضبان سجنه أوتار قيثارة) ويخلق لنا من لظى تلك النار واحات نقصدها كلما اشتد علينا قيظ هذه الحياة اللاهب ! . .

أسير في طريق في مهمه سحيق
ووحدتي رفيق ووجهتي الفضا
مطيتي التراب وخوذتي السحاب
ودرعي السراب ورائدي القضا
تسوقني الثواني في موكب الزمان
ولست أدري شاني في معرض الورى
فلا القضا ينبيني ولا الرجا يهديني
ولا السما تعطيني نوراً لكي أرى
أخالقي رحماكا بما برت يداك
إن لم أكن صداكا فصوتُ من أنا ؟
ربي ألا تراني أساق كالحملان
ربي أما كفاني عماي والوني ؟
فابدل لظى نيراني بجمرة الإيمان
واجعل من الحنان للقلب مرهما
إذ ذاك بالتهليل أسيرُ في سبيلي
وخالقي دليلي ووجهتي السما !

هذا هو نعيمه الحائر بين موحيات الكتب التائه في مفاوز الأديان وشعابها المطلسمة ، قد أضناه تساؤل العقل وأذابه جنين الروح للوصول إلى الحقيقة والإيمان ! . . .

هذا هو نعيمه الذي استنجد بالسماء لتهبه راحة الإيمان فلما ضنت عليه السماء بتلك النعمة خلق من نفسه للنفسه سماء ولا كالسماء ونعيما ولا كالنعيم ، وتلك السماء وهذا النعيم اللذان أبدعهما نعيمة بصبره الطويل وتهجداته الروحية المضنية إن لم نجدهما في (همس الجفون) فنحن واجدوهما في (زاد المعاد) (والمراحل) (والبيادر) .

نعم وصل نعيمه إلى السماء أو (النرفانا) التي حج إليها من قبله (الغزالي ، وابن عربي ، والأسيزي) وطاف في رحابها (ابن الفارض ، والجنيد ، والحلاج) وغيرهم ممن صفت نفوسهم وطهرت قلوبهم من أقذار الأرض وأوضارها .

(البقية في العدد القادم)

منير هويس